جيهان الحلو*

حنا ميخائيل (أبو عمر): سيرة مناضل وإنسان عصيّة على الاختفاء

ولد حنا إبراهيم ميخائيل المعروف بـ "أبو عمر" في مدينة رام الله في فلسطين، وكان عمره ثلاثة عشر عاما عندما حدثت مأساة اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه في سنة ١٩٤٨.

وقد تركت تجربة استقبال اللاجئين الفلسطينيين التي عايشها حنا أثراً بالغاً في نفسه عندما كان طفلاً في رام الله، وأسست لانتمائه الوطني والتزامه المبدئي في الدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية.

برز حنا في مدرسة "الفرندز" فحصل في سنة ١٩٥٢، نتيجة تفوقه، على منحة دراسية من كلية هارفرد في الولايات المتحدة حيث درس بدايةً مادة الكيمياء، ثم نال الدكتوراه في العلوم السياسية وكتب أطروحته عن الماوردي، إذ ارتأى أن الطريقة المثلى أمامه آنذاك، ضمن الظروف الموضوعية الصعبة وفي غياب أطر النضال الوطني، وتغييب الهوية الفلسطينية، هي التعمق في دراسة التاريخ الإسلامي كي يتمكّن من فهم أعمق للمجتمع العربي وسبل تطوره. ودرّس في جامعات أميركية متنوعة آخرها جامعة واشنطن، سياتل.

عندما وقعت حرب ١٩٦٧، لم يتردد أبو عمر لحظة، وإنما اختار الانخراط في صفوف المقاومة الفلسطينية، وبدأ نشاطه السياسي في الولايات المتحدة، لكنه سرعان ما قرر ترك التدريس للالتحاق بصفوف المقاومة الفلسطينية في الأردن، على الرغم من طلب عضو اللجنة المركزية لحركة "فتح" خالد الحسن منه أن يبقى في الولايات المتحدة كي يمارس العمل الإعلامي، لكن أبو عمر رفض واعتبر أن كثيرين غيره ممن يعيشون في الولايات المتحدة يمكنهم أن يقوموا بمثل هذا الدور. لقد أراد أن يكون في مركز الحدث، إذ إن تعزيز الوضع الداخلي وبناء القدرة الذاتية هما الأصل في تعزيز التضامن العالمي وتحقيق النصر. وكان الانضمام إلى المقاومة الفلسطينية والتفرغ لها عملاً يعزز الأمل والحلم بإنهاء معاناة الشعب الفلسطيني الذي ابتدأ يسير على خطى حركات التحرر الوطني في العالم. ولذا، لم يكن مستغرباً أن تقول شقيقته جويس عندما جاءت إلى بيروت من نيويورك في سنة ١٩٧٢: "لم أر أبو عمر مرتاحاً وسعيداً طوال الأعوام السبعة عشر التي كان فيها في الولايات المتحدة كما هو الآن."

انضم أبو عمر إلى حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، وحين سأله مسؤول الحركة آنذاك في الولايات المتحدة، لماذا اختار تلك الحركة، أجاب: " 'فتح' هي الحركة الأكبر والأكثر جماهيرية وتأثيراً وليس لها أيديولوجيا محددة، الأمر يتيح للعضو حرية التثقيف والمبادرة بشكل لا تتيحه

* ناشطة فلسطينية وزوجة أبو عمر.

التنظيمات ذات المركزية العالية."

ترك سياتل في أوائل صيف سنة ١٩٦٩ كي يعيش في قواعد المقاتلين، فالبيروقراطية لم تكن ظهرت آنذاك داخل التنظيم، ولا وُجد فصل واضح بين المقاتلين والسياسيين، ولذا، فإنه كثيراً ما قضى وقته في قواعد المقاتلين حيث ساهم في التوجيه السياسي، وفي وضع برنامج التثقيف والأنشطة في مخيمات الأشبال. كان ينام في البداية في القواعد أو في المكتب، لكن سرعان ما طُلِبَ منه المساعدة في تنظيم جهاز الإعلام المركزي في عمّان وتطويره. وبعد فترة وجيزة طلبت القيادة منه متابعة العلاقات الخارجية في أوروبا الغربية، والتي كانت لا تزال في بداياتها الجنينية، وخصوصاً العلاقات بالشخصيات والقوى المؤيدة أو المستعدة للتعرف إلى القضية وأوضاع النضال الفلسطيني في كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وسويسرا. وكانت جهود أبو عمر مثمرة فتأسست شبكة من الاتصالات وأقيمت الندوات والمهرجانات وأُسّست لجان الصداقة، كما شارك بفاعلية في إدارة "مخيم التضامن العالمي" الذي عزز علاقات التضامن بحركة المقاومة الفلسطينية في أوروبا الغربية. وكان لـ "أبو عمر" أيضاً دور مميز في الإعلام والعلاقات العامة مع الصحافيين والوفود التي كانت تزور الأردن آنذاك، علاوة على أنه عمل فترة مستشاراً صحافياً لأبي عمار.

واجه أبو عمر، كغيره من المناضلين، مخاطر جدّية خلال أحداث "أيلول الأسود" في سنة ١٩٧٠، والتي أدت إلى خروج المقاومة الفلسطينية من عمّان، ولم تعرف عائلته عنه شيئاً لبضعة أشهر. فقد رفض أن يخرج مع المقاتلين والكوادر، وبقي مع قلة من الكوادر السياسية قريباً من المقاتلين الصامدين في جرش، ثم انتقل في أواخر صيف سنة ١٩٧١ إلى بيروت بعدما أنهت المواجهة الدامية مع الجيش الأردني وجود المقاومة الفلسطينية في الأردن.

وكانت تجربة عمّان غنية جداً، إذ على الرغم من الثغرات التنظيمية وغياب الرؤية الواضحة وبرنامج العمل، فإن المقاومة اجتذبت أعداداً هائلة من الكوادر والمقاتلين الفلسطينيين ومن الداعمين من مختلف الفئات الاجتماعية من مثقفين وطلاب وعمال وفلاحين وعشرات المثقفين والمناضلين العرب. واتسمت قواعد المقاومة آنذاك بروح عالية من الرغبة في العطاء والتضحية والبساطة والبعد عن البيروقراطية، كما كان هناك علاقة تلاحم بين المقاتلين والميليشيا والجماهير الفلسطينية والأردنية على الرغم من محاولات تشويه السمعة التي قامت بها القوى المضادة، فضلاً عن تجاوزات الطرف الفلسطيني وأخطائه.

وكان للضربة الموجعة التي تلقتها المقاومة الفلسطينية تأثيرها في أبو عمر وغيره من الكوادر، لكنه لم ييأس، إذ إن هذه التجربة مكّنته من بدء اكتشاف مأزق حركة "فتح" واستحالة تحقيق النصر في ظل قيادة تفتقر إلى الفكر والرؤية الاستراتيجية والتنظيم الثوري. وقد ابتدأت أولويات أبو عمر بالتبلور بعد الخروج من أحراش جرش وانتقال المقاومة إلى لبنان، فانضم إلى "مركز الأبحاث الفلسطيني"، وإلى أسرة تحرير "شؤون فلسطينية"، وكذلك إلى "مركز التخطيط الفلسطيني" بعد أن انتقل إلى بيروت وسكن في غرفة مفروشة عند عائلة فلسطينية.

ومع تعمّق وعي أبو عمر بأوضاع المقاومة الفلسطينية وأهمية تدعيم العامل الذاتي من خلال تطوير البنى التنظيمية والمؤسسات الشعبية والاجتماعية والثقافية، قرر تركيز جهده على العمل التنظيمي والتعبوي داخل الأرض المحتلة، وانضم في أواخر سنة ١٩٧١ إلى "لجنة التنظيم" داخل الأرض المحتلة. وكان يشدد على أهمية دور المجتمع المدني في النضال، كما أنه ركّز على بناء التنظيم وتطوير الكوادر. وقد استمر في هذا المجال النضالي حتى تاريخ اختفائه.

وتزايدت مسؤوليات أبو عمر في سنة ١٩٧٣ حين أصبح عضواً في لجنة قيادة لبنان مسؤولاً عن شؤون المرأة والطلاب حتى أواخر سنة ١٩٧٥. وقد ساهم بفاعلية كبيرة في تفعيل القطاع الطالبي وإعادة تأسيس التنظيم النسائي في "فتح" على

أسس أكثر ديمقراطية وفاعلية، ولذا، خفّت مساهمته في القضايا الإعلامية والعلاقات الخارجية.

وأزعجت مظاهر النمو البيروقراطي داخل أجهزة المقاومة ومنظمة التحرير الفلسطينية أبو عمر فانتقد هذه المظاهر ورأى أنها تتكون على حساب الفاعلية النضالية والنمو الثوري السليم. وكان يشدد على أهمية إقامة بنية تنظيمية قائمة على العلاقات الديمقراطية، كما أنه انتقد بشدة مظاهر الإسراف المادي وظهور المحسوبية والفساد عند بعض كوادر المنظمة، مؤكداً، في المقابل، أهمية التقشف والمساواة الاجتماعية بين الجميع: قيادةً وكوادر وقواعد شعبية.

ملاءمة الأهداف التحررية بوسائل فاعلة

انضم أبو عمر إلى المقاومة من منطلق فهمه للثورة الفلسطينية بصفتها حركة شعبية مرتبطة عضوياً بحركة التحرر العربية والعالمية. وانطلاقاً من فهمه هذا، كان شديد الإعجاب بالثورة الفييتنامية، ولهذا سعى لأن يكون ضمن مجموعة من الكوادر الفلسطينية التي ذهبت إلى هانوي في خريف سنة ١٩٧٥ لدراسة التجربة الفييتنامية لثلاثة أشهر. وقد أعجب كثيراً بتلك التجربة وكتب خلال وجوده هناك شعراً (غير منشور) تغنّى فيه بالشعب الفييتنامي ونضاليته العالية.

ورأى أن قيادة "فتح" قيادة طليعية ساهمت في إطلاق شرارة النضال الفلسطيني المعاصر ضمن أوضاع صعبة جداً، وفي فترة غُيّبت القضية الفلسطينية عن المسرح الدولي السياسي والإعلامي، لكنه كان قلقاً إزاء ضعف أو غياب البرامج الاستراتيجية والمرحلية. ولم ينل أسلوب الانقلاب أو الحلول القسرية إعجاب أبو عمر، وإنما عمل من أجل وحدة اليسار وتطور مواقعه النضالية وقاعدته الشعبية.

وكان أبو عمر مؤمناً بالديمقراطية الاجتماعية المرافقة للديمقراطية السياسية، وساهم انخراطه في العمل السياسي والتنظيمي في تطوير إيمانه بالفكر الماركسي، إذ رأى فيه منهجاً علمياً لفهم حركة التاريخ والصراع الطبقي. ولذلك انتقد العفوية والعشوائية السائدتين في العمل النضالي الفلسطيني، وكذلك غياب المضمون الاجتماعي، ورأى أن النضال بأمسّ الحاجة إلى الاستفادة من جميع الإمكانات المتوفرة، وإلى تأسيس البرامج على فهم عميق للظروف الموضوعية والإمكانات الذاتية، ولتجارب حركات التحرر في العالم.

ولم يُقم أبو عمر فصلاً بين مواقفه وبين التطلعات والوسائل. فمن جهة التطلعات، آمن بأن الحل الأمثل للقضية الفلسطينية هو حل ديمقراطي جذري شرطه هزيمة الحركة الصهيونية وتفكيك بنى العنصرية والاستعمار كافة، كما تبنى فكرة إنشاء دولة ديمقراطية يعيش فيها جميع المواطنين العرب واليهود على قدم المساواة، ومن دون تمييز بسبب العقيدة أو الدين أو اللون أو الجنس.

أمّا من جهة الوسائل، فإن أبو عمر لم يكن ضد مبدأ التفاوض بحد ذاته، لكن بشرط الوصول إلى توازن قوى مع العدو. كما أنه لم يرفض فكرة إقامة الدولة الفلسطينية على أي جزء من فلسطين كخطوة أولى مع تحقيق كامل الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، لكنه كان يرى استحالة تحقيق ذلك في ظل التطرف الصهيوني وسياسة الاستعمار الاستيطاني العنصري والدعم الإمبريالي له.

ونبّه أبو عمر إلى خطورة المضي في أوهام إقامة دولة فلسطينية مستقلة قبل حدوث تغييرات جوهرية على صعيد موازين القوى الذاتية وعلى صعيد حركة التحرير العربية والعالمية، فضلاً عن أهمية ترافق ذلك مع نمو تيار ديمقراطي قوي داخل إسرائيل معادٍ لسياستها الاستعمارية العنصرية، وداخل الدول الغربية، ولا سيما في الولايات المتحدة، من أجل أن يضغط أفراده على دولهم، ولدعم حقوق الشعب الفلسطيني. ولذا، انتقد العمليات العسكرية الخارجية في دول الشمال لأنها تسيء إلى النضال الفلسطيني، مع تأكيده أهمية دور المجتمع المدني والنضال السلمي في مسيرة التحرر الوطني.

وفي إطار إدراك أهمية البعد العالمي للنضال، فإن أبو عمر كان العضو العربي الوحيد في هيئة المحلفين في "محكمة راسل الثانية للسلام". وقد استمر في عضويتها وبقي على صلة برئيسها السناتور الإيطالي "ليلو باسو" وبالأصدقاء وببعض الشخصيات المؤيدة للقضية الفلسطينية، وأهمهم الكاتب الفرنسي الكبير جان جينيه الذي ذكر أبو عمر كثيراً في كتابه "الأسير العاشق".

وعلى الرغم من اقتناع أبو عمر بأهمية النضال على مستوى المنظمات الدولية والرأي العام العالمي، فإنه رفض طلب رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات أن يكون أول مندوب للمنظمة في الأمم المتحدة، بعد اعتراف الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني في سنة ١٩٧٤، ذلك بأنه كان يفضّل النضال على مستوى البناء الذاتي الفلسطيني وتعزيز الوضع التنظيمي تحديداً، مؤمناً بأنه متى تعزز الوضع الداخلي، تعزز التضامن العالمي.

وعملياً، عمل أبو عمر ولجنة تنظيم الداخل (القطاع الغربي) التي كان عضواً فيها، مع كوادر يسارية على تأسيس تيار ثوري قائم على رؤية علمية. وهذا التيار لم يطرح نفسه كتنظيم إضافي، وإنما كتيار يساهم في نشر الوعي وتصحيح المسار الثوري من خلال العمل على وحدة القوى اليسارية الفلسطينية لتكون القوى الثورية المؤهلة لقيادة النضال حتى النصر.

كما أن اهتمام أبو عمر بالمجتمع المدني لم يتناقض مع اقتناعه بشرعية ممارسة الكفاح المسلح وفق الحاجة ومن دون أن يقدس البندقية، إذ لم ير أنها هدف بحد ذاته، وإنما تحدث عن أهمية أن يكون السلاح في خدمة السياسة الاستراتيجية والتكتيكية.

المعلم والمثقف الثوري

كان أبو عمر معلماً ثورياً يعتمد الكلمات البسيطة المعبرة، فأغرم بالإيجاز، وكان بدأ تطبيقه في أطروحة الدكتوراه المهمة التي كتبها عن الماوردي بعنوان "السياسة والوحي" في الإسلام، إذ لم تتعدّ ١٠٠ صفحة.

وانتقد أبو عمر الأكاديميين الذين يستعملون المصطلحات الصعبة كتعبير عن التميز، لأن المهم بالنسبة إليه هو إيصال الأفكار والوعي إلى الآخرين، فكان يقول إن المعرفة "أهم سلاح للتحرر." وفي هذا السياق، لم يكن من المستغرب أن يقوم بتلخيص وتحليل تاريخ المقاومة الفلسطينية قبل النكبة ضد الانتداب البريطاني والاستعمار الاستيطاني الصهيوني، في بضع صفحات، وأن يخصص صفحة واحدة لمفهوم الجبهة الوطنية المتحدة وصفحة أخرى لمقومات الاجتماع الناجح، كما أنه تمكن ببراعة من تلخيص وتبسيط كل من المادية الجدلية والمادية التاريخية.

ورأى أبو عمر أن التثقيف السياسي والعام هو قضية أساسية في بناء الكادر وتطوير الأداء الثوري، وكان يحدد المادة التثقيفية السياسية والاجتماعية والأدبية ويحرص على أن تتضمن كتباً عربية متنوعة وكتباً من التراث الإسلامي إيماناً بتعزيز الانتماء القومي العربي، وبأهمية معرفة الحضارة والتراث الإسلاميين. كما كان ذا توجه جادّ في تبسيط المادة التثقيفية كي تصبح جماهيرية ومفهومة، ولا تبقى مقتصرة على النخبة. وكثيراً ما كان يدعّم النظريات والمقولات السياسية بالأمثال الشعبية مستعملاً اللهجة العامية واللهجة الفلاحية الفلسطينية، فكان سريع البديهة يحب النكات واللعب على الكلمات.

ولشدة إيمانه بأهمية الوعي الثوري لتطوير أساليب النضال بوسائل شتى، فإنه رعى حركة المسرح الناشئة في الأرض المحتلة. وذكر إميل عشراوي الذي كان من مؤسسي مسرح "بلالين" في القدس/رام الله أن أبو عمر أرسل وراء مجموعة من المسرحيين ورتّب لهم كي يتعرفوا إلى حركة المسرح في لبنان وسورية ومصر، وقد بقوا في المنطقة ثلاثة أشهر (لم يتمكنوا خلالها من دخول مصر)،

وفي أثناء هذه الزيارة التقوا روجيه عساف وشوشو وغيرهما وتلقوا بعض التدريب من خلال حضور البروفات.

ونُشرت أطروحة أبو عمر: "السياسة والوحي: الماوردي وما بعده" بعد اختفائه (كان أبو عمر يرغب في تبسيطها وتطويرها) باللغتين الإنجليزية والعربية، وتضمن الكتاب مقالة مؤثرة كتبها صديقه المفكر الكبير إدوارد سعيد، إلى جانب مقالة لصديقته الأستاذة الجامعية الإيطالية المتخصصة بدراسات الشرق الأوسط بيانكا ماريا سكارسيا أموريتي عن مضمون الكتاب. وكان المفكر والمؤرخ الكبير ألبرت حوراني قال عن تلك الأطروحة إنها "أكثر البحوث التي قرأتها إمتاعاً عن الفكر السياسي السني..."

ومن المؤسف أن يكون أبو عمر رحل عنا قبل أن يستكمل مشروعه في متابعة كتابة تاريخ منطقتنا العربية برؤية جديدة بعيداً عمّا كتبه المستشرقون، فقد فُقدت مسودات هذا المشروع مع ما فُقد من كتاباته الأُخرى غير المنشورة خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في سنة ١٩٨٢.

صفات شخصية مميزة

كان أبو عمر وحيداً بين أربع بنات، ومنذ صغره كان مناصراً لقضية المرأة. وعندما أصبح شاباً رفض أن يؤدي دور "الذكورة" السائد في المجتمع، وشدد على أهمية تعليم المرأة، ورفض كثيراً من القيود والقيم البالية التي تعوق دورها في المجتمع. وقد تمثل هذا الأمر في نشوء علاقة صداقة وتكافؤ مع شقيقاته وأسرته وأصدقائه.

التقيتُ أبو عمر في سنة ١٩٦٩، وكنت منخرطة في صفوف "فتح" والاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وداعية متحمسة لقضية المرأة. وقد تزوجنا في سنة ١٩٧٢، وشهدت تلك الفترة ذروة التساؤلات والنقاشات، وخصوصاً بين صفوف اليسار في جميع التنظيمات، بشأن مختلف المفاهيم الاجتماعية، وكذلك قضية المضمون الاجتماعي للثورة الفلسطينية وما يتعلق بالمساواة الاجتماعية والأسرة والحب والمرأة والأولاد والعمل المنزلي. وكانت العلاقة بيني وبينه متميزة في هذا الصدد، فقد كنا متحررين، إلاّ إننا راعينا التقاليد الاجتماعية في القضايا الرئيسية التي تؤثر في العلاقة بالمجتمع. وكان أبو عمر يدافع بصدق وحرارة عن المساواة بين الجنسين ويعمل على نشر الوعي بشأن قضية تحرر المرأة، كما كان يمارس معتقداته بتفصيلاتها الدقيقة في حياته اليومية.

امتلك أبو عمر عمقاً إنسانياً كبيراً، ولهذا، فإن كثيرين من الكوادر من الجنسين كانوا يستشيرونه في قضاياهم الاجتماعية الشخصية لأنه كان يحاول أن يفهم صعوبة تشابك العلاقات وتعقيدها بين تداخل قيم المجتمع التقليدي العشائري والقيم البورجوازية والثورية، كما كان يؤمن بأهمية فهم العلاقة بين العقل والعاطفة. ومن أهم أسباب شعبية أبو عمر تواضعه الشديد وبساطة مظهره وتقشفه واحترامه للآخرين سواء اتفق معهم فكرياً وسياسياً أم لم يتفق، وكان متقشفاً في الأموال العامة وعلى المستوى الشخصي أيضاً.

وكان للنقلة النوعية لأبو عمر من أستاذ جامعي إلى مناضل ثوري تأثير كبير في نمط حياته، فتأقلم، خلال الفترة التي عاشها في مكتب إعلام "فتح"، مع قضية العيش والأكل الجماعي، ورفض طوال أعوام، وبإصرار، أن يقبل من الحركة سيارة خاصة، وإنما فضّل المشي أو استخدام المواصلات العامة، وتحول من شاب يهتم بأناقته إلى مناضل يلبس الملابس البسيطة، حتى إنه كان يشتري سترته من محلات الملابس المستعملة، ولم يأخذ أي مخصص على الرغم من رمزيته، إلاّ بعد انتهاء مدخراته.

لم يكن أبو عمر صدامياً في تعامله مع الآخرين الذين يختلف معهم أيديولوجياً وسياسياً، أو حتى في منهج العمل، وإنما كان جدياً في التعامل وصلباً لا يحيد عن مبادئه. وعلى الرغم من صلابة موقفه ورفضه البرنامج المرحلي آنذاك، فإنه رأى أهمية التعامل مع جميع الاتجاهات ضمن جبهة موحدة

لمواجهة محاولات ترويض الثورة وتصفيتها، مع أنه كان شديد النقد لنهج القيادة المساوم والواثق بالإدارة الأميركية. كما اهتم بمحاورة وإقناع مجموعة من يسار "فتح" اندفعت وراء البرنامج المرحلي، إيماناً منها بأن الاتحاد السوفياتي سيضع ثقله في انتزاع دولة فلسطين المستقلة، مبيناً أن هذه المراهنة وهمية.

قضية المرأة

كان أبو عمر من أشد مناصري قضية المرأة، وتقول أمه: مع أنه كان وحيداً بين أربع بنات، إلاّ إن حسه الإنساني المرهف جعله دائماً شديد الحساسية تجاه التمييز الممارس في مجتمعنا ضد المرأة. فقد كان يريد لأخواته ما يريد لنفسه، كما كان يتعاطف مع المرأة الملزمة بأعباء العمل المنزلي وتربية الأطفال، فضلاً عن قيود المجتمع الجائرة.

كان دور أبو عمر متميزاً عندما استلم متابعة تنظيم المرأة في حركة "فتح" في لبنان وذلك من خلال محاولة فهم القضايا الاجتماعية وتأثيرها في المشاركة الفاعلة للمرأة في التنظيم وفي العمل الوطني عامة. وكان يؤمن بدور الطليعة النسائية في هذا المجال، كونها القدوة والمثال الذي يمهد لانخراط الجماهير النسائية الواسعة في النضال، كما أنه آمن بأهمية توعية الرجل بقضية المرأة.

وقال أبو عمر بعد انتهاء معسكر لتنظيم "فتح" الطالبي: "قضية المرأة هي الأساس في الحكم على مدى تقدمية أي رجل، وإذا ما حككنا جلد معظم الرجال فيما يتعلق بقضية المرأة لرأينا أن معظمهم متمسك بكثير من التقاليد البالية"، ذلك بأنه رأى خلال المعسكر المختلط عمق الشوفينية الرجولية حتى بين صفوف الشباب.

وكثيراً ما كان يمزح قائلاً أنه على الرغم من اقتناعاته النظرية بالمساواة بين المرأة والرجل، فإن الممارسة العملية شيء مختلف، فهو مثلاً، كان يصر على المشاركة الكاملة في الأعمال المنزلية، وإن كان يعبّر أحياناً عن انزعاجه ويرى أن هذا الانزعاج يعكس التناقض بين ما هو عقلاني وما هو عاطفي، وبين المنطق والرغبة، وهو تناقض ناتج من مئات السنين من قيم اجتماعية بالية تكرس دونية المرأة.

ولم يكن مستغرباً أن يأتيه كثيرون من الكوادر والأصدقاء لعرض مشكلاتهم ولاستشارته بشأن الحلول الملائمة لقضاياهم الاجتماعية. فأبو عمر كان مستمعاً جيداً يسبر أغوار الأمور ولا يتقدم بأجوبة وحلول جاهزة أو سحرية، وإنما كان يرى التناقضات ويحدد الأولويات. ومع أنه كان ثورياً في مفاهيمه الاجتماعية، إلاّ إنه لم يكن يشجع الطليعة على أن تقفز بعيداً عن جماهيرها، وإنما كان يرى أن التقدم بخطوات متدرجة هو الأهم، وكذلك وجوب توعية الجماهير والاستفادة من الظروف الموضوعية والذاتية للسير معاً في قفزات نوعية حين تنضج الأوضاع.

نهاية مأساوية

في أواخر تموز/يوليو ١٩٧٦، وفي أوج الحرب الأهلية اللبنانية، اهتزت المقاومة الفلسطينية لخبر اختفاء أبو عمر مع تسعة مناضلين من كوادر المقاومة بمَن فيهم المناضل نعيم عضو المجلس الثوري، وذلك في أثناء توجههم بحراً في زورق مطاطي من بيروت إلى طرابلس في شمال لبنان لصعوبة الوصول براً بسبب سيطرة القوى الفاشية على المنطقة الشرقية من بيروت. وكان أبو عمر متوجهاً إلى طرابلس المحاصرة لتأمين بعض مقومات صمود الجماهير الفلسطينية والتنسيق مع الحركة الوطنية اللبنانية هناك، وكانت هذه آخر مهمة ثورية يقوم بها، إذ إنه فُقد هو ورفاقه، وقد استمر البحث عنهم من دون جدوى أعواماً طويلة.

أُنهيت حياة أبو عمر الواعدة وهو في أوج عطائه وشبابه، لكن القيم الإنسانية النبيلة التي آمن بها، ستبقى حية راسخة في الذاكرة الشعبية والوجدان الفلسطيني والإنساني! ■